السياسية. واليوم، بسبب غياب الاتحاد السوفياتي الذي عزز وجوده في السابق من حرية البرجوازية في الجنوب، تميل برجوازيات هذه الدول إلى الكمبرادورية، أي إلى لعب دور الوسيط بين بلدانها وبين الإمبريالية. لكن أمين يرى أن الأحادية في طريقها إلى الزوال، إذ إن الولايات المتحدة تسير باتجاه فقدان هيمنتها على العالم، ولكنها ستستخدم كل الوسائل للحفاظ على هيمنتها، بما فيها العنف

السوفياتية، وفشل النموذج الاشتراكي السوفياتي في إغراء هذه الشعوب. وهذه المعطيات لا تزال قائمة حتى يومنا هذا. نعم إن «ثورة اكتوبر» فتحت أبواب التغيير الحقيقي للعالم. لأن هذا التغيير الكبير بدأ ليس بإطلاق التحول الاشتراكي فحسب، وإنما بإشعال حركات التحرر الوطني الكبيرة، في الجنوب وفي بلدان الأطراف. من دون «ثورة أكتوبر» ما كان للثورة الصينية أن تندلع وتنتصر، ولكانت توقفت مع «الكومينتانغ». من دون «ثورة أكتوبر»، ما وجدت «باندونغ» بعد الحرب العالمية الثانية، ولما أبصرت المشاريع الوطنية الكبرى في الجنوب النور. يكفي النظر إلى سياسة جمال عبد الناصر ما بين 1952 و1955 حتى «باندونغ»، التي كانت سياسة رجعية تعتمد على اجتذاب الرساميل الأجنبية لتطوير مصر، وهذه الثرثرة البرجوازية المعروفة في البلدان المتخلفة. بعد «باندونغ» تغير جمال عبد الناصر وبدّل رأيه في استراتيجية التنمية، وباشر فك ارتباط جزئي من دون الذهاب بعيداً فيها.

من دون «أكتوبر» لا يمكن فهم البلدان النامية الصاعدة اليوم، وخصوصاً الصين. «أكتوبر» الروسي افتتح عملية تغيير العالم، وتلك الفكرة المتداولة في الغرب، بأن الاشتراكية قد أخفقت وأننا قد عدنا أدراجنا إلى الراسمالية التي لا بديل عنها، هي ثرثرة لا أكثر. إن الثورات تكون كبيرة بقدر ما تضع نصب عينيها أهدافاً عظيمة لا يمكن تحقيقها في المدى المباشر والقريب، وهي ثورات تنعت بحقّ بـ«الحالمة»، لأن حلم اليوم هو حقيقة الغد البعيد. وهي الثورات التي تصنع التاريخ. وهناك ثلاث ثورات كبيرة شهدها الزمن الحديث: الفرنسية والروسية والصينية. ولأنها مدعوة أن تنجز أهدافها العظيمة في وقت قصير جداً، من دون أن تتمكن من ذلك، تشهد خطوات إلى الوراء، وهذا ما عرفته الثورة الفرنسية، من خلال إعادة الملكية مؤقتاً، وهذا ما شهدته الثورة الروسية، وهذا ما شهدته جزئياً الثورة الصينية. هذا قدر الثورات الكبرى.

■ كيف تصف المشهد العالمي الجديد الذي يتميز بتراجع الهيمنة الأميركية، وصعود أقطاب جدد كالصين وروسيا؟ وهل يشكل ذلك فرصة لشعوب الجنوب؟

بالطبع. الولايات المتحدة في طريقها إلى فقدان هيمنتها على العالم، ولكنها ستستخدم كل الوسائل للحفاظ على هيمنتها، بما فيها العنف. وفي الوقت نفسه، إن الدول المرشحة للعب دور أكبر في النظام العالمي، وفرض بديل عن العولمة المفروضة بعولمة توافقية، تتردد كثيراً. إن البلد الوحيد الذي يملك استراتيجية واضحة هو الصين وكان بوسع الهند أن تملك استراتيجية مماثلة لو قدر للتحالف الحكومي السابق المدعوم من الشيوعيين البقاء والاحتفاظ بالأكثرية في البرلمان. أما في البلدان العربية، فإن البديل الإسلامي هو الأسلمة مع الأمركة، أي الشريعة زائد «كوكاكولا». أما البرازيل فقد استعادت القوى الرجعية السلطة. في ظل هذه الشروط، هل من الممكن التفكير باستراتيجية تفتح الطريق أمام موجة ثورية جديدة؟ أزعم أنه ممكن وأن هناك مؤشرات ومقدمات عن ذلك لا سيما في أميركا اللاتينية. حصلت انتصارات انتخابية لقوى يسارية عدّة نجحت بالقيام بمجموعة من الإصلاحات لكنها عجزت عن إعادة النظر بنمط الانتاج السائد ولا بأشكال الملكية المهيمنة. وقد تم استنزاف وإنهاك هذه القوى من قبل الأطراف الرجعية المحلية المتحالفة مع الإمبريالية خلال العقدين الماضيين. وقد سقطت هذه القوى في البرازيل بسبب قوة الأطراف الرجعية في هذا البلد، لكنها لا تزال صامدة في بوليفيا وفنزويلا والإكوادور وكوبا. أعتقد أن ما ينبغي أن يتصدر قائمة الأولويات الآن هو إنشاء أوسع كتلة بديلة ممكنة معادية للإمبريالية.

روسيا كانت بلداً متخلّفاً، 90% من الروس كانوا فلاحين، صناعتها ناشئة، ويسيطر عليها الرأسمال الأجنبي، الألماني الفرنسي والبريطاني، والقليل منه كان أميركيا آنذاك، روسيا إذاً كانت بلداً طرفياً.

كان لينين شديد التفاؤل بأن تعمّ الثورة، بعد «أكتوبر» بلدان المركز. كيف يمكن للثورة في حلقة ضعيفة أن تنتشر وفي مهلة قصيرة جداً في بلدان المركز الرأسمالي. التاريخ جاء ليدحض هذا التفاؤل ويبين خطأه. وهذا ليس مفاجئاً. روزا لوكسمبورغ في الفترة نفسها، في عام 1918، وقبل أسابيع من

من دون «أكتوبر» لا يمكن فهم البلدان النامية الصاعدة اليوم

اغتيالها، كانت تتحدث عن أن الثورة الروسية تجد نفسها في مواجهة خيانة البروليتاريا الأوروبية لها، الألمانية والفرنسية والبريطانية، وأنها ستكون وحيدة ولزمن طويل. وهذا ما سيراه لينين فيما بعد. الماركسية التاريخية، وجزئياً ماركسية الأممية الثالثة، قلّلت كثيراً من تداعيات الموقع الإمبريالي الذي تحتله بلدان هذه المجتمعات عليها. وهذا يشرح إلى حد ما قبول الشعوب الغربية بشن بلدانها حرباً باردة وحتى ساخنة ضد روسيا

ثورة أكتوبر والتحرر الوطني في القرن الواحد والعشرين

وليد شرارة

ثورة أكتوبر منعت سقوط روسيا ومعها القسم الأكبر من الدول والشعوب الخاضعة للإمبراطورية القيصرية في براثن القوى الإمبريالية الغربية التي كانت في أوج توسعها في أرجاء المعمورة خلال تلك الحقبة من التاريخ. ما كان لمصير هذا البلد أن يكون أفضل من مصير السلطنة العثمانية التي اجتاحتها جيوش الغرب وقسمتها أو من مصير غالبية دول الجنوب التي توزعت ما بين مستعمرات وأشباه مستعمرات تابعة لهذه الدولة الغربية أو تلك لو لم تتنتصر هذه الثورة. وقد عزز من مناعتها نجاح الحزب البلشفي في حسم الحرب الأهلية التي تلتها لمصلحته، على الرغم من تدخل القوى الغربية المباشر للقتال إلى جانب أعدائه الروس البيض، ومن ثم في بناء دولة مركزية قوية وجيش جرّار وتحديث وتطوير البنى التحتية الاقتصادية والاجتماعية.

طبيعة الاتحاد السوفياتي ما زالت حتى اليوم محط جدال بين من يعتبر أنه كان نظاماً اشتراكياً بالفعل وبين من يرى أنه كان دولة عمالية مشوهة أو حتى برأي آخرين مجرد رأسمالية دولة. لكن المؤكد أن البلاشفة، بغض النظر عن قناعاتهم العقائدية ونواياهم، أنجزوا وظيفة وطنية بامتياز إذ حافظوا على وحدة واستقلال روسيا، وهي كانت قبل الثورة دولة متداعية مرشحة للتفكك والانهيار، وعلى البلدان الخاضعة لنفوذها في ذروة الاستباحة الاستعمارية للعالم غير الغربي. وعلى أنقاض الإمبراطورية القيصرية، نشأ الاتحاد السوفياتي الذي تحول إلى قطب دولي بارز بفترة وجيزة نسبياً.

الوظيفة الوطنية لثورة أكتوبر من منظور تاريخي هي السبب الأول لعداء القوى الإمبريالية الغربية لها، وهو عداء مستحكم ومستديم لم يبرد رغم مرور أكثر من ربع قرن على انهيار الاتحاد السوفياتي. يظهر التعاطي الإعلامي لأجهزة الدعاية الغربية الخاضعة أكثر من السابق لمصالح المجموعات الاقتصادية والمالية التي تمتلكها ولسياسات حكوماتها، مع ذكراها المئوية هذا الواقع بجلاء. ويظهره أيضاً مناصبة هذه الأجهزة العداء للنظام الروسي الحالي، بقيادة الرئيس فلاديمير بوتين، رغم الاختلافات الكبرى في الطبيعة والأسس الأيديولوجية والسياسات بين القيادتين والنظامين. وجه الشبه الوحيد بينهما هو في الدور الذي اضطلعت به القيادتان في مرحلتين حرجتين من تاريخ بلدهما. عند وصول بوتين إلى السلطة كانت روسيا في طور التحول مجدداً إلى دولة متداعية مهددة بالانهيار بعد فترة حكم الرئيس بوريس يلتسين التي سيطرت خلالها مافيات الفساد السياسي والمالي، المرتبطة بشركات أميركية وغربية، على مؤسسات الدولة ومواردها. تم بيع جزء معتبر من القطاع العام بأبخس الأثمان وبدأت الحكومة المركزية تفقد السيطرة على مناطق واسعة من البلاد ووقعت تحت سطوة تحالف المسؤولين المحليين والمافيات المشار إليها سابقاً. دفع هذا الواقع زبغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر وأبرز الخبراء الاستراتيجيين الأميركيين، إلى أن يتنبأ ببراءة شديدة، في كتابه الشهير «رقعة الشطرنج»، بحتمية أن تنقسم روسيا إلى ثلاث دول. لكن بوتين وفريقه استطاعوا أن يغيّروا مجرى الأحداث ويطهروا مؤسسات الدولة نسبياً من مراكز القوى ذات الارتباطات الخارجية ويعيدوا سيطرتها الفعلية على كامل مناطقها وأطرافها. وعادت روسيا لتحتل موقعاً هاماً على المستوى الدولي.

التطورات التي تلت ثورة أكتوبر لم تكن مطابقة لتوقعات لينين والبلاشفة. فبدلاً من انتقال العدوى الثورية من الحلقة الضعيفة للمنظومة الرأسمالية، أي روسيا التي وصفت كذلك بسبب تخلف بناها الاقتصادية والاجتماعية، إلى حلقاتها القوية أي دول المركز الرأسمالي الغربي، انتقلت هذه العدوى إلى الجزء المستعمر من العالم. جميع الثورات التي حملت راية الاشتراكية وانتصر بعضها خلال القرن العشرين في الصين وفييتنام وكوبا وأنغولا وموزمبيق وزيمبابوي كانت في الواقع حروب تحرير وطنية ضد الاستعمار. وكما كان الحال مع ثورة أكتوبر، أنجزت هذه الثورات مهامها الوطنية بجدارة فانتزعت استقلال بلدانها وطورت، بدرجات متفاوتة جداً أحياناً بين بلد وآخر، بناها الاقتصادية والاجتماعية وأدخلت تحسينات نوعية على مستويات حياة شعوبها. وقد سمح ميزان القوى الجديد على المستوى الدولي الناجم عن انتصار هذه الثورات لعدة دول أخرى في الجنوب، كدول جنوب شرق آسيا، أن تستفيد من التناقضات بين القطبين الدوليين لتحقق هي الأخرى إنجازات كبرى في المجالات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية ما كانت القوى الغربية لتقبل بها لولا ضرورات الصراع مع الاتحاد السوفياتي والصين والدول الاشتراكية.

مئة عام بعد أكتوبر، ما زال التحرر الوطني هو القضية المركزية للشعوب العربية ولشعوب أفريقيا جنوب الصحراء وأميركا اللاتينية. فحروب التدخل العسكري الإمبريالية ومنظومة السيطرة والنهب المعولمة ووكلائها المحليين حولوا دولها إلى دول منكوبة أو متداعية وقطاعات واسعة من شعوبها إلى كتل هائمة مشردة داخل أو خارج بلدانها نتيجة الحروب وسياسات التصحيح الهيكلي أي تدمير الريف والقطاع العام والصناعات الوطنية والمزيد من إفقار وتجويع الفقراء. إعادة صياغة مشروع للتحرر الوطني مسألة مصيرية، مسألة بقاء بالنسبة للشعوب المنكوبة حتى تستعيد الأمل في الحد الأدنى من الحياة الكريمة ولو في مستقبل بعيد. ودون ذلك المزيد من الخراب والدمار والموت اقتتالاً أو غرقاً في قعر البحار...

(أ ف ب)